

عشرون فضيلة ومزية لأهل قيام الليل حسن مهدي قاسم الريمي



الحمد لله الذي امتن على أهل قيام الليل بفضله، وجاد عليهم بألائه ونعمه، وأفاض عليهم حلاوة مناجاته ونسيم قربه، وساق خطاهم على مستقيم دربه، والصلوة والسلام على خير خلقه، وأكمل رسله وأنبيائه، الذي قام بين يدي ربه حتى تفتت قدماه. فُسئِلَ عن ذلك، فقال: أفلا أكون عبداً شكورا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى به واستن بسنته إلى يوم الدين. أما بعد.....

مدح الله أقواماً تجافت جنوبهم عن المضاجع؛ وعافت جفونهم الكرى، فباتوا ساهرين بين الوري، تركوا لذيق النوم على القُرْبِ الوطيئة، وهجروا المطالب الدانية والدنيئة، وجعلوا بينهم وبين خالقهم من العمل خبيئة، حين قاموا يدعونه خوفاً من عذابه، وطمعاً في جزيل ثوابه، ورغبة فيما عنده جل جلاله.

أخفوا لله عملاً بالليل فأخفى الله لهم الجزاء والثواب على سبيل تشويق غيرهم لما هم فيه، وأشعارهم بوفير ما اكتنزوه.

قال تعالي عنهم: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُزُّوا وَسَجِدُوا ﴿١﴾ وَإِن يَدْعُوا بِهِمُ الرَّبَّ إِنَّا لَا نَسْتَجِيبُ لَهُمْ سَاعَةَ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمُ الْغَمُّ ﴿٢﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة السجدة: 10-17].

وقال تعالي: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٤﴾ وَإِن لَّابْصَارًا لَّهُمْ يَسْتَعْفِفُونَ} [الذاريات: 18 ، 17].
قيل في تفسير هذه الآية: لاتمضي عليهم ليلة إلا يصلون فيها لله.

وقيل: قل ما يرفدون حتى الصباح.
وقيل: لا ينامون من الليل إلا أقله.

وقال تعالي: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان: 76]
فهذه صفاتهم في ليلهم: تارة ساجدين على جباههم لله تعالي، وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه سبحانه.

أثر السجود تراه في سيقانهم
ما نورهم للنظرين بخافي

أخفوا لياليهم بطول تهجد
ما كفوا أجسادهم بلخاف

هؤلاء هم أصحاب الهمم العالية، والمراتب السامية، الموعودون من خالقهم بالقطوف الدانية، الذين برهنوا على قوة إيمانهم عملياً بقيامهم بين يدي ربه جل في علاه، في ساعة يخلو فيها المنام، فكانوا حيثُ أَرَدَ اللهُ، قائمين، راكعين، ساجدين، قارئين، داعين، مستغفرين.
عَلَّفُوا بِهِ قُلُوبَهُمْ، وَرَطَّبُوا بِذِكْرِهِ أَلْسِنَتَهُمْ، وَسَكَبُوا مِنْ خَشْيَتِهِ عِبْرَاتِهِمْ، وَأَنْزَلُوا بِهِ حَاجَاتِهِمْ، لَمْ يَكِلُوا مِنْ دَعَائِهِ، وَلَمْ يَقْنَطُوا مِنْ رَجَائِهِ، وَلَمْ يَفْتَرُوا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَسْأَلُوا مِنْ رَحْمَتِهِ.

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَانَدُوهُ
فَيَسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعٌ

أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ مَقَامُوا
وَأَهْلُ الْأُمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعٌ

لَهُمْ تَحْتِ الظُّلَمِ وَهُمْ سُجُودٌ
أَيُّنَ مِنْهُ تَنْفِرُ الصَّلُوعُ

إخفَى اللهُ قيام الليل؛ وأهله، بمزايا وفضائل هي لهم دون غيرهم، منها:
أولاً: أن الله أقامهم لمناجاته بين يديه في أحب ساعات القرب إليه:
قال صلى الله عليه وسلم: (يُنزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَعْفِرَ لَهُ) رواه البخاري ومسلم.

ثانياً: أنَّ الله جلَّ في علاه خصهم بالمدح في مواضع كثيرة، فافاض لهم فيها الثناء، كما أجزل لهم العطاء، منها:
قوله تعالي: {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} - [السجدة: 17-17].

ثالثاً: جعل الله لهم غرماً في الجنة ذات أوصاف فارهاة: قِيلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْمًا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونَهَا مِنْ ظُهُورِهَا، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامًا). [أخرجه الترمذي وحسنه الألباني].

رابعاً: هم أهل شفاعة القرآن: قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَسْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، فَعَفَّئَهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَسَفَّعَنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَعَفَّئَهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَسَفَّعَنِي فِيهِ، قَالَ: فَيَسْفَعَانِ). [رواه الإمام أحمد وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

خامساً: أنهم أشرف الناس: قَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (يَا مُحَمَّدُ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ). [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

سادساً: هم المغبوطون: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَاخَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ). [رواه مسلم].

سابعاً: نفي عنهم الغفلة، وكُتِبُوا مِنَ الْقَانِتِينَ، وَالْمَقْنَطِرِينَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يَكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِعِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ). [صححه الألباني في صحيح أبي داود (176)].

ثامناً: أنهم موفقون لإجابة الدعاء: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْراً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ). [رواه مسلم].

تاسعاً: خصهم الله تبارك وتعالى بالقرب منه: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مَقْلٌ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ). [رواه الترمذي وصححه الألباني].

عاشرًا: أن قيامهم ينهاهم عن الذنوب والمعاصي وفعل المنكرات: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فَلَانًا يَصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ: «سَيِّئُهَا مَا يَقُولُ» [رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني].

حادي عشر: أنه يطرد الداء من الجسد، وأول داء يطرده داء العجز والكسل: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم؛ فإن قيام الليل قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ - عز وجل - وتكفيرٌ للذنوب وقَطْرَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ وَمِنَاهَا عَنِ الْإِثْمِ». [أخرجه الترمذي والبيهقي، وقال العراقي: إسناده حسن، وحسنه الألباني].

ثاني عشر: أنه معيَّن على تثبيت القرآن في الصدر: عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه» [رواه مسلم]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَسَدٌ وَطَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: 6].

ثالث عشر: أنه سبب رحمة الله على الزوجين: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ» [رواه أبو داود، وقال الألباني: حسن صحيح].

رابع عشر: أنه مُكَفِّرٌ لِلخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ، وَمِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ صَاحِبَهَا الْجَنَّةَ، وَتَبَاعَدُهُ عَنِ النَّارِ: فَعَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: ((لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنِّي لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتُصُومُ رَمَضَانَ، وَتُحِجُّ الْبَيْتَ - ثُمَّ قَالَ -: أَلَا ذَلِكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى بَلَغَ: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ... الْحَدِيثُ. [رواه الترمذي وصححه الألباني].

خامس عشر: أن الله تعالى ربط به تشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالمقام المحمود: قَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 79]، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ الْعِظْمَى، يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

سادس عشر: أنه من علامات المتقين: قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ رَبُّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَشْجَارِ هُمْ يَسْتَعْجِرُونَ} [الذاريات: 10-18]

سابع عشر: أنه أفضل الصلاة بعد الفريضة: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ). [رواه مسلم].

ثامن عشر: أنه سبب لعبودية الشكر: فعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟!). [أخرجه البخاري ومسلم]

تاسع عشر: أنه نجاة من الفتن، وعصمة من الهلاك: ففي صحيح البخاري عن أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - استيقظ ليلة، فقال: (سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتنة؟ ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟ من يوقظ صواحب الخجرات؟) يعني: زوجاته؛ ليصلين من الليل، وللاستعاذة مما نزل؛ ليكونن أول من استعاذ من فتن الدنيا).

عشرون: أنه سبب في صلاح الأبناء والأسرة: فعندما يراك أهلك وأولادك تقوم الليل فإن هذا السلوك سيؤثر فيهم. قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}. [الكهف: ٨٢]

يا رجال الليل جئوا ربّ داع لا يزيد
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد
ليس شيء كصلاة الليل للقبر بعد

وفي الختام - أيها الأحبة - هذه قطوف من دوحة القائمين، وزاد المسافرين، وثغر المرابطين، ودأب الصالحين، وتجارة المؤمنين، وملاذ المظلومين، وعمل الفائزين رهبان الليل فرسان النهار.

نستشعر بها معاني عبادة الخفاء التي يُنادى إليها بدون مؤذن ولا مسجد.

قال -صلى الله عليه وسلم- : (إذا كان نُلتُ الليل أو سَطُرَه ينزلُ اللهُ إلى سماء الدنيا فيقولُ هل من سائلٍ فأُعطيَه هل من داعي فأستجيب له هل من تائبٍ فأَتوبُ عليه هل من مستغفرٍ فأغفرُ له حتى يَطلُعَ الفجرُ). [صحيح]

وأحب العمل إلى الله ما داوم عليه، وقليل دائم خير من كثير منقطع، قال عليه الصلاة والسلام: (أحب الأعمال إلى الله: أدومها وإن قل). [أخرجه البخاري]

فأسأل الله جل في علاه أن يعيننا جميعاً على القيام بين يديه، والتمتع بقربه ومناجاته، والفوز بجناته والعتق من نيرانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

حسن مهدي قاسم الربيعي